نصوص مختارة لميخائيل نعيمه

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

مِحْوَرُ الأدَب

(وُضِعَتْ مقدّمةً " **لمجموعة الرابطة القلميّة**" لسنة ١٩٢١)

والذي حَارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ حيوانٌ مُستحدَثٌ مِن جمادِ

هو الإنسان – عِبْرَة العِبَر وحَيْرةُ الحِيَر. يجيء من حيث لا يدري. ويمضي إلى حيث لا يدري. يحلّ هذه الأرض ردحًا من الزمن فيبهره جلال ما يرى، ويسحره جمال ما يسمع. فوقه نجوم لا تُعَد وحوله فضاء لا يُحدّ، وخلفه وأمامه حياة تتردَّى كلّ لحظة برداء. فصول تعقب فصولًا، وأجيال تلحق بأجيال. نهار تبتلعه ظلمة، وظلمة يمحوها نهار. ولادة وموت، وموت وولادة، وبين الولادة والموت أشواق لا تنطفئ حتّى تلتهب، وآلام لا تكنّ حتّى تَهِيْج، وسعادة لا تُورق حتّى تذوي، وعطش لا يرتوي حتّى يعود، وجوع لا يطمئنّ حتّى يثور.

هو الإنسان_ أُحجية الأَحاجي. منذ خالجَتْ نفسَه اليقظةُ حتّى اليوم وهو في صراع مستتبّ مع الطبيعة. لا يصرعها مرّة حتّى تصرعه ألف مرّة. ولا يتغلّب على عثرة من عثراتها حتّى تقيم في سبيله ألف عثرة وعثرة. ولا يرفع الغطاء عن سرّ من أسرارها حتّى تباغته بألف سرّ وسرّ. فهي غالبة أبدًا وهو مغلوب. ومن الغريب أنّه، مع ضعفه الواضح وجبروتها الظاهر، لا يزال يصارعها. فلا هو ينثني ولا هي ترحم. ولا هو يقرّ لها بالغلبة ولا هي تسحقه فتستريح منه وتريحه.

فما السرّ في حرب هذا "الحيوان المستحدَث" مع كون، ما هو بالنسبة إليه إلّا حشرة صغيرة؟ تصرعه الحياة فلا يلبث أن يعود منتصبًا على ساقَيه متحّفزًا للوثوب. تُجَرِّعُهُ من المرارة ألوانًا فلا ينقم عليها ولا يتركها إلّا قسر إرادته. وَتُنْزِل به من المصائب أشكالًا فيتحمّلها بثبات وصبر. وتقيم في وجهه من العقبات جبالًا فلا تثنيه عن سيره ولا تثبط عزيمته.

إنّ "حيوانًا" يثبت في جهاده مع الكون مثل هذا الثبات لَحيوان، وَأَيْم الحقّ، غريب عجيب، فما السرّ في هذا الثبات؟

أَوَ ليس السرّ في أنّ لهذا الحيوان "المستحدَث" سلاحًا لا تحطّمه العناصر ولا يفلُّه الموت؟ وهل ذلك السلاح إلّا قوًى كامنة فيه هي أشدّ وأمتن وأبقى من قواه الحيوانيّة؟

تلك قوى الروح غير الفانية. تلك هي القوى التي ترفعنا فوق الحيوانيّة، وتُرينا في دياجير الحياة وميضَ أنوار تُحبِّب إلينا الحياة، وتذكي في داخلنا شرارةَ أمل بأنّ لا بدّ أن ندرك يومًا ما نحن طالبون. إي. هي قوى الروح تُسيّرنا على غير معرفة منّا ونشعر بها إنّما لا ندركها بعد. لذاك نبحث عنها حتّى إذا ما وجدناها وجدنا أنفسنا فعرفنا إذ ذاك منزلتنا من الكون، وسِرْنا معه لا ضدّه لنتمَّ به ويتمّ بنا.

أجل. إننّا في كلّ ما نفعل، وكلّ ما نقول، وكلّ ما نكتب، أنّما نفتّش عن أنفسنا. فإن فتّشنا عن الله فلنجدَ أنفسنا في الله. وإن سعَيْنا وراء الجمال فإنّما نسعى وراء أنفسنا في الجمال. وإن طلبنا الفضيلة فلا نطلب إلّا أنفسنا في الفضيلة. وإن بَحَثْنا عن مِكروب فلا نبحث إلّا عن أنفسنا في المكروب. وإن اكتشفنا سرًّا من أسرار الطبيعة فما نحن إلّا مكتشفون سرًّا من أسرارنا. فكلّ ما يأتيه الإنسان إنّما يدور حول محور واحد هو– الإنسان. حول هذا المحور تدور علومه وفلسفته وصناعته وتجارته وفنونه. وحول هذا المحور تدور آدابه. فهو في كلّها يسعى وراء أمر واحد. وهو أن يُظْهِر نفسَه علّه يدرك القوى التي تسير به في بحر الوجود. ولا قيمَة لعمل يأتيه إلّا بمقدار ما يُدنيه ذاك العمل من معرفة نفسه أو يُقصيه عنها. وسواء أدرك الإنسان ذلك أم لم يدركه فهو أبدًا يقيس كلّ مآتيه بهذا المقياس، فيُهْمِل منها ما لا يزيده بنفسه معرفة، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرًا من مظاهر نفسه. وما تاريخ المدنيّة، لو فحصنا، إلّا تاريخ هذه الغربلة الدائمة، والمقابَلة بين الأمور، وانتقاء ما فيه أثر روحيّ جليل، وإهمال ما ليس فيه من أثرٍ يُذكَر.

إنّ على سطح الأرض الملايين من البنايات التي شادتها يد الإنسان من قديمة وحديثة. ولكنّ الآثار الهندسيّة التي تقرّ بها العين وتنتعش بها الروح لا تُعَدّ بالملايين ولا بالألوف. وفي العالم جبال من الرسوم والتماثيل. لكنّ الرسوم والتماثيل التي نقف أمامها بخشوع ودهشة تُعَدّ على الأصابع. وفي مكاتب [مكتبات] العالم قناطير مقنطرة من الآثار الكتابيّة. فكم هي الكتب التي لا تزال تقصدها البشريّة لترشف المعرفة والحكمة من سطورها!

قد يخطئ الإنسان اليوم في حكمه على أثر من الآثار، فيستكبر الصغير ويستصغر الكبير. قد يخطئ جيلًا، لكنّه لا يخطئ دهرًا. فالأثر الخالد لا يموت. والميت لا يعيش. ولا يخلد من الآثار إلّا ما كان فيه بعض من الروح الخالدة. بين كلّ المسارح التي تتقلّب عليها مشاهد الحياة ليس كالأدب مسرحًا يظهر عليه الإنسان بكلّ مظاهره الروحيّة والجسديّة. ففي الأدب يرى نفسه ممثِّلًا ومشاهِدًا في وقت واحد. هنالك يشاهد نفسه في الأقماط حتّى الأكفان. وهنالكَ يمثِّل أدواره المتلوِّنة بلون الساعات والأيّام. وهنالك يسمع نبضات قلبه في نبضات سواه، ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره. ويشعر بأوجاع جسمه في أوجاع جسم إنسان مثله. هناك تتّخذ عواطفه الصمّاء لسانًا من عواطف الشاعر. وتلبس أفكاره رداء من نسيج أفكار الكاتب. فيرى عن نفسه ما كان خفيًّا عنه. وينطق بما كان لسانه عَيِيًّا من النطق به، فيقترب من نفسه ويقترب من العالم. فرّب قصيدة أثارت فيه عاصفة من العواطف. ومقالة تفجرّت لها في نفسه ينابيع من القوى الكامنة. أو كلمة رفعت عن عينيه نقابًا كثيفًا. أو رواية قلبت إلحاده إلى إيمان، ويأسه إلى رجاء، وخموله إلى عزيمة، ورذيلته إلى فضيلة. تلك مزية قد خُصَّ بها الأدب. وتلك هي مملكة الأدب لا ينازعه عليها مُنازِع. وما سلطان الأدب إلّا في أنّه أبدًا يجول في أقطار النفس باحثًا عن مسالكها، مستطلِعًا آثارها. وما شرف الأديب إلّا أنّه أبدًا يُشاطِر العالِم اكتشافاته في عوالم نفسه. حتّى إذا ما وجد آخر بعضًا من نفسه في تلك الاكتشافات كان في ذلك للأديب أطيب تعزية وأكبر ثواب.

إذن فالأدب الذي هو أدب، ليس إلّا رسولًا بين نفس الكاتب ونفس سواه. والأديب الذي يستحقّ أن يُدعى أديبًا هو من يزوِّد رسوله من قلبه ولبّه.

إنّ "الرابطة القلميّة" ما كانت لتقدِّم هذه المجموعة إلى قرّاء العربيّة لولا اعتقادها بأنّها قد اتّخذت من الأدب رسولًا لا معرضًا للأزياء اللغويّة والبهرجة العَروضيّة. وقد تكون مخطئة في ما تعتقد. لكنّ إخلاصها في الأقلّ يشفع بخطئها. فهي لا تدّعي لهذه المجموعة أكثر ممّا تستحق. فإن لم يكن لها إلّا تشويق بعض الأرواح الناشئة إلى طرق الأدب عن سبيل النفس لا عن سبيل المعجمات فحسبها ثوابًا. فقد كفانا ما عندنا من المعجزات اللغويّة، وآن لنا أن نتعطّف ولو بالتفاتة على ذلك "الحيوان المستحدَث" الذي كان ولا يزال سرّ الأسرار ولغز الألغاز، لعلّنا نجد فيه ما هو أحرى بالنظر والدرس من رأس السمكة في قولهم "أكلْتُ السمكة حتّى رأسها".

ميخائيل نعيمة،

من **المجموعة الكاملة، الغربال**، المجلّد الثالث، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ٣٥٤-٣٥٨.

###

بصيص نور

[...] وأعرفُ أنّ أعمار الناس قد تطول إلى المئة أو أكثر من السنين .وأنّها قد تَقصُر فلا تمتدّ لأبعد من يوم أو ساعة .فما هي القدرة الّتي تُفصِّل الأعمار؟ أين هي؟ وهل لها في تفصيلها نهجٌ لا تَحيد عنه؟ أم أنّها عمياء تُفصِّل كيفما اتَّفَق؟ أم أنّ تفكيرنا في قوّةٍ عمياءَ أو مُبصِرةٍ هو ضربٌ من البلاهة؟ إذن، فالعدل كذلك، والنظام، والحكمة، وحبّ البقاء، ضروب من البلاهة، أو مفردات في القاموس لا أكثر. وإذن من أين جاءتني تلك اللمحة الساحرة الّتي وصفْتُها في فصل سابق من "المرحلة الأولى" من هذا الكتاب، إذ كنت جالسًا وحدي على صخرة من صخور الشخروب، فأحسستُني كالماشي في نفق مظلم، ثمّ أحسَسْتُ النفق ينفرج، وأبصرت نورًا ضاعت فيه كلّ الحدود بيني وبين الكائنات؟[١].

كنت في مثل ذلك الجوّ من القلق النفسانيّ عندما جمعتني الظروف في بدء سنتي الثالثة (نيويورك) بشابٍ اسكتلندي كان يدرس الصيدلة في الجامعة. وكان شريكي في غرفة صغيرة اكترَيْناها معًا في أحد البيوت المجاورة للجامعة. وكنْتُ، من بعد أن ارتحت إليه وارتاح إليّ، أدعوه "بِلّ" (مُختصَر وِليَم) وكان يدعوني "ميشا".

كان رفيقي "بِلّ" خافِتَ الصوت، هادئَ الحركات، كسيرَ الجَفن. وكان يُبصِر الكون من خلال نظّارتين سميكتَين. وله كمانٌ لا ينفكّ يَعزِف عليه في أوقات فراغه، ولكن من غير أن يزعجني. وكنْتُ أُسَرّ بعزفه.

مرّ شهران وأنا أرقُب "بِلّ" مساء كلّ خميس من كلّ أسبوع يتأبّط كمانه ويَنزِل إلى المدينة فلا يعود حتّى الساعة العاشرة .أخيرًا سألته في ذلك فأجابني أنّه عضو في جمعيّة تَعقِد اجتماعاتها مساء كلّ خميس، وأنّه يتبرّع بالعزف على كمانه في كلّ اجتماع.

قلت :ماذا غير العزف في اجتماعاتكم؟

قال :محاضرات ومناقشات في المبادئ الّتي قامت الجمعيّة لنشرها.

- وما اسم الجمعيّة؟

---

١ [هذه "اللمحة الساحرة" تحدّث عنها نعيمه في **المجموعة الكاملة، سبعون، المرحلة الأولى**، المجلّد الأوّل، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ٢٥١- ٢٥٢].

- الجمعيّة الثيوصوفيّة.
- وما هي مبادئها؟
- أهمّها التقمّص وميزان الثواب والعقاب.
- التقمّص؟! وما معنى التقمّص؟
- معناه أنّ كلّ مَن يموت يعود بعد فترة من الزمن فيولد من جديد، كما تفعل الحبّة بالتمام. فهي تموت لتولَد حبّةً من جديد.
- أتعني أنني سأموت ثمّ أعود فأولد في مثل جسمي الحاليّ وظروفي الحاليّة؟
- لا. بل تولد في جسد جديد يُهيَّأ لك حسبما تقتضيه أعمالك وميولك ومواهبك وعلاقاتك الّتي حملْتَها معك عند الموت من حياتك الحاضرة.
- ومَن الّذي يهيئ لي ذلك الجسد؟
- القائمون على ميزان "التكافؤ"، أو ميزان الثواب والعقاب.
- وما هو ذلك الميزان؟
- إنّه النظام القاضي بأن تَحصُد مثلما تزرع. فمن زرع الزؤان حصد الزؤان. ومن زرع القمح حصد القمح. الخير بالخير. والشرّ بالشرّ. حتّى الأفكار والنيّات تخضع للنظام.
- إذن يبقى زارع القمح يَحصُد القمح. وزارع الزؤان يحصد الزؤان إلى الأبد.
- بل القصد من تكرار الولادات أن يُدرِك زارع الشرّ خطأه فيزرع الخير. وذلك لا يكون له إلّا بالاختيار ولادةً بعد ولادة.
- إذن خلاصُكَ في يدك يا إسرائيل.
- أجل. خلاصك في يدك.
- ولا دَخلَ لله في تفاوت الحظوظ بين الناس؟
- على الإطلاق. وإلّا فأيّ العدل هو عدل الله يَضرِب جنينًا في بطن أمّه بالعَمى، أو بالبُكم، أو بالكُساح والبَلَه، ويمنح الآخر القوّة والعبقريّة والجمال؟ إنّما يكوّن كلّ منّا حياته الآتية من حياته الحاضرة. فمن مات وبه مَيْلٌ يطغى على باقي ميوله عاد إلى الأرض فكان ذلك الميل أبرز مواهبه. هكذا عزف موتسارت على البيانو وهو في الرابعة من عمره. وهكذا نبغ نابوليون في فنون الحرب وارتقى العرش. وكان جنديًّا مجهولًا. ثمّ مات منفيًّا لأنّه في حياته ما استحقّ تلك النهاية.
- على رِسْلك يا بِلّ. إنّك لَتكاد تعطّل عليّ تفكيري. إذا صحّ قولك فما بالي لا أذكر شيئًا من حياتي السابقة؟
- وكيف تذكرها وبينك وبينها وَهدَة الموت؟ إنّك تنام ليلك ثمّ تُفيق فلا تذكر إلّا القليل القليل من أحلامك. وقد لا تذكر منها شيئًا. فكيف بك تنام نوم الموت، وتنتقل من جسد إلى جسد، ومن حال إلى حال؟ وهناك الّذين يذكرون، والّذين يَروون حكاياتِ حَيَواتٍ سابقات ولكنّ الناس لا يُصدِّقون.
- أتصدّق أنت؟
- أجل. أصدّق.
- هنيئًا لك!

طالت المحاورة الأولى بيني وبين رفيقي الاسكتلندي. ولم أكُ من قبلها قد سمعت أو قرأت شيئًا عن التقمّص. وعلى قَدْر ما استغربت العقيدة واستهجنتها في بدء حديثنا عنها وجدتُني، كلّما تمادَيتُ في الأسئلة، وتبسّطَ رفيقي في الأجوبة والشرح، أفتح لها عقلي وقلبي أوسع فأوسع. حتّى إنّني أذهلت بِلْ عندما رحت أفسّر حياتي، والحياة إجمالًا، على ضوء تلك العقيدة. فحَسْبي منها أنّها ردّت إليّ إيماني بقدرة شاملة، منظِّمة، عادلة، مُحِبّة، لا محاباةٌ في نظامها، ولا زَيْف. وأنّها عوّضتني عن فكرة "الخطيئة الجِدّيّة" و"الدَينونة الرهيبة"، فكرة الخلاص بجهودي الخاصّة، وذلك عن طريق التجربة المؤدِّية إلى المعرفة. ولأنّ المعرفة لا تكون معرفة إلّا إذا لم يبقَ لديها أيّ مجهول، ولأنّ تلك المعرفة يستحيل بلوغها في خلال عمر واحد مهما طال، فالعقيدة قد جعلت العمرَ حركة موصولة تتخلّلها فترات انتقال من جسد إلى جسد، ومن حال إلى حال. وهي الفترات الّتي ندعوها "الموت".

وعلامَ لا؟ علامَ لا يُفسِح الله للإنسان مجالًا للمعرفة غيرَ سنوات معدودات، والزمان كلّه في قبضته؟ وها أنا – الإنسان الجاهل، القاصر– لا أتوقّع من ولد يدخل مدرسة ابتدائيّة أن يَخرج منها بعد سنة بشهادة دكتور في الفلسفة. فكيف يريدنا الله أن ندخل مدرسة الحياة لننتهيَ منها في عَقْدَين أو ثمانية عقود من السنين بشهادة تخوّلنا دخول "ملكوته السماويّ" و"فسيح جِنانه"؟ وإلّا فمصيرنا إلى الهاوية حيث النار لا تنطفئ والدود لا ينام...

ثمّ حَسْبُ العقيدة أن تفسّر لي صفات الناس وصِلاتهم بعضِهم ببعض ما بين أبوّة وأمومة وأخوّة، وصداقة وعداوة. إنّها صفات وصلات موروثة عن حَيَواتٍ سابقات. فلا اعتباطٌ فيها ولا مصادفات. وهي الّتي تُحَدِّد الوراثة والبيئة. وليست الوراثة والبيئة هما اللتان تحدّدانها. وهي "القضاء". وهي "القَدَر".

وأيُّ بأس على العقيدة في أنّ "العلم" لا يُقِرّها؟ وماذا يعرف العلم؟ إنّه لا يزال في أول طريقه من درس المحسوسات. وفي كلّ يوم له افتراضات جديدة تمحو افتراضات قديمة. وهنالك مجاهل كثيرة في نفس الإنسان يتحاشى العلم اقتحامها، ولا هو يستطيع "تشريحها" في أيّ من مختبراته. ولماذا أصدّق استنتاجات عالِمٍ في مختبره، ولا أصدّق استنتاجاتي الخاصّة، أو استنتاجات رجال أمثال فيثاغور، وأفلاطون، والمسيح، وباتَنْجالي، وغيرهم، في أمور تتعلّق بأحاسيسَ وهواجسَ ورؤًى لا تدخل في نطاق العلم واختباراته؟ إنْ يكن للعالِم مختبره، فنفسي هي مختبري. وإنْ أمضى العالِم في مختبره بضع ساعات من يومه، فنفسي معي في الليل والنهار، وأنا أُجري فيها اختباراتي في كلّ دقيقة من حياتي. وهي تسجّل كلّ ما أختبره بدقّة أين منها دقّة الأجهزة الكهربائيّة والإلكترونيّة.

خلاصة القول إنّ عقيدةَ تَكَرُّرِ الاختبار بتكرُّر الأعمار بغية المعرفة الكاملة والحرّيّة المُثلى باتت الركيزة الكبرى الّتي تقوم عليها فلسفة حياتي من بعد تلك "المُصادَفة" الّتي جمعتني برفيقي الاسكتلندي وقادتني إلى الحوار الّذي جرى بيني وبينه. فالحياة أكثر من مهزلة تبتدئ في المهد وتنتهي في اللحد لتعود فتتجدّد إمّا في غبطة أبديّة، أو في عذاب أبديّ. أو لتَمّحيَ بالموت وكأنّها لم تكن. والإنسان أكثر من أُلعوبة في يد القَدَر – حتّى وفي يد الله. إنّه الشرارة الإلهيّة المُغلَّفة بشتّى الغُلُف والمتوهّجة توهّجًا لا ينقطع ولا ينفكّ يُحرِق تلك الغُلُف على مدى الزمان إلى أن ينطلق منها نورًا يملأ الزمان والمكان. والتوهّج لا يكون إلّا على قَدْر الشوق إلى الانطلاق من الغُلُف. لذلك كانت الحرارة الّتي يبعثها فينا شوقُنا إلى الجمال والمعرفة والحرّيّة مقياس "تقدّمنا". وكان التمسّك بالفضيلة والخُلُق الكريم

والمَثل الأعلى مقياس أشواقنا. فهذه أكثر بكثير من مفردات في القاموس. أمّا الرذيلة والخُلُق الذميم والاستهتار بالمُثُل العليا فدُخانٌ وسُخامٌ وقَتامٌ من شأنها أن تَحجُب الشرارة الإلهيّة وأن تَحُدّ من توهّجها.

وأوغلتُ بعدئذٍ في درس التعاليم "الباطنيّة" منذ أقدم العصور، وفي درس الديانات "السماويّة" وغير السماويّة. فأدهشني ما بينها من تقارب في الهدف والوسيلة على بُعْد الشُقّة في الزمان والمكان. فلا "الفيدا" ولا "الزَنْدْأَفِستا" ببعيدة عن "أسرار هِرمِس". ولا "الطاو" عند لاوتسو بغريب عن "الآب" عند يسوع. ولا "النِرفانا" في "دْهامابادا" إلّا صورة أخرى من صُوَر "الملكوت السماويّ" في الإنجيل. والحلّاج وابن عربيّ وغيرهما من المتصوِّفة العرب يلتقون على صعيد يكاد يكون واحدًا مع فرنسيس الأسيزيّ وجاكوب بوهمِه وسويدِنْبُرغ ووِلْيَمْ بْلايْك وراما كريشنا وغوردييف وأوروبيندو ومن نحا نَحوَهم في سائر أقطار العالم.

إنّها لَدُنيا تَحفِل بالشوق إلى "الحقيقة" وإلى كشف الوسائل الّتي تُمكِّن الإنسان من بلوغها كيما يُخلَّص بها من رِبْقة الجهل والألم والموت. ولا ضَيْرَ عليها أن تكون غيرَ الوسائل الّتي يعتمدها العلم. بل قد تكون هي الطريق الأقرب إلى الهدف من تلك الّتي يسير عليها العلم. والجهل كلُّ الجهل في أن يتعامى عنها أيُّ مُفتِّشٍ عن حقيقة نفسه وحياته".

ميخائيل نعيمة،

من **المجموعة الكاملة، سبعون، المرحلة الثانية**، المجلّد الأوّل، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩، ص ٣٢٥-٣٣٠.

###

إلى فارس بطرس

البرازيل

بسكنتا لبنان ١٦ كانون الثاني ١٩٥٥

أخي العزيز فارس بطرس

لا يزال الحرف، في اعتقادي، أهمّ ما اكتشفه الإنسان– أو انكشف له– من الوسائل الفعّالة لتيسير معيشته وفكّ طلاسم الوجود الّتي تحيق به من كلّ جانب. ولا أستثني الكهرباء والراديو والطاقة الذريّة. فلولا الحرف لما كان للأفكار والأرواح أن تتعارف وتتلاقح عبر الزمان والمكان، ولا كان للإنسان أن يستعين بخبرة الأمس على مشكلات اليوم، وبخبرة اليوم على مجابهة الغد. ولولا الحرف لما كان لهذا القلم أن يحرّك فيك ما حرّك من جميل الأفكار وطيب المشاعر، وبيني وبينك قارّات ومحيطات.

صدّق يا أخي أنّ **مرداد** ما راقك واستهواك إلّا لأنّك أنت كذلك تتحدّث إلى نفسك بلسانه، فأنا ما كتبْتَهُ وحدي. بل ساعدني في كتابته كلّ قارئ يتشوّق إلى معرفة نفسه، وإلى هدفه من وجوده، والطريق الذي يؤدّي به إلى ذلك الهدف. وقد كنْتَ في جملة الذين

اتّخذوا من قلمي ومن لسان "مرداد" ترجماناً عمّا في نفوسهم من شوق إلى الانعتاق والتغلّب. قد يبدو لك هذا القول ضربًا من المجاز والمبالغة. إلّا أنه الحقيقة العارية. فالأيدي التّي تساعدنا ولا نراها، والأرواح التّي تومي إلينا عن غير وعي منّا، والأمواج الفكريّة التّي تتدفّق علينا من كلّ صوب ونحن لا نشعر بها، لأكثر من أن تُحصى. والمجاري الخفيّة التي تتّصل بمجرى حياتنا الفرديّة من غير أن نخبرها خبرة حسّيّة لَفوق ما تستوعبه مداركنا المشتّتة بين ألف حاجة وحاجة من حاجات المعيشة اليوميّة.

إنيّ لأُبارِكُ الروح الذي أوحى إليك بما جاء في رسالتك. وأبارك القلم الذي خطّ حروف تلك الرسالة. فنحن، وإن تلاقينا اليوم في الحروف، سنبقى في اتّصال دائم، وفي مدًى يرتدّ عنه الحرف ذليلًا، هزيلًا. فالحرف على اتّساعه، يغدو قفصًا في العالم الرحب اللامتناهي حيث الروح واحد، والحياة لا تتجزّأ. وحيث أنت أنا، وأنا أنت، وكلانا في كلّ شيء. وفي كلّ زمان ومكان– بل فوق كلّ شيء. وخارج كلّ مكان وزمان.– فهاكَ يدي. بل هاكَ قلبي.

بسكنتا ٢٧ آذار ١٩٥٥

قرأتُ رسالتك السخيّة فأحسسْتُ غبطة ناعمة، هادئة، تفيض عليّ من سطورها ومن بين سطورها. هي غبطة الزارع وقد أيقن أنّ بذاره وقع في أرض مشتاقة، خصبة. أو هي غبطة النافخ في رماد وقد انكشف له الرماد عن جذوات حيّة، متوهّجة. أو غبطة السائر وحده في طريق بعيد، مُقْفِر، وقد التفتَ إلى الوراء فإذا بقوم يقتفون أثره. ولَكَمْ سألْتُ نفسي إذا كنتُ حقيقًا بتلك الغبطة أقتطفها من قلوب أمثالك من قرّائي– وهم الصفوة الممتازة– والمبرِّر الأكبر لما أكتبه وأنشره في الناس.

حَسْبُكَ من حياتي يا أخي أن تبصر هدفك وأن تسعى إليه بشوق وحنين وإيمان وإرادة. ولا يثقلنَّ عليك أن تراك مكبّلًا بقيود كثيرة تجعل سيرك بطيئًا وطريقك طويلًا. فلا مناص لك– ما دمْتَ من لحم ودم – من دفع جزية اللحم والدم. ولا غضاضة في ذلك عليك إلّا إذا جعلْت دفع تلك الجزية هدفًا يُرتجى في ذاته ولذاته. أمّا إذا اتّخذت من الجزية وسيلة من الوسائل التي تدفع بك نحو الهدف فقد شرّفْتَها بشرف هدفك، وجمّلْتَها بجماله، وطهّرْتَها بطهارته. فالمهمّ أن تبقى عين القلب على الهدف، وأن لا ينام الفكر عنه إذ يعمل الإنسان في سبيل جسده وواجباته الأرضيّة. ولست أجد في هذا المعنى أفضل من قول المسيح: "أعطوا ما لقيصر لقيصر. وما لله لله".
والانعتاق الذي يحدّثك عنه "مرداد" لن يأتيك في دورة واحدة من دورات الحياة. ولا في قفزة واحدة. يكفيك منه الآن أنّك تفكِّر فيه، وتتعشّقه، وتحنّ إليه. زادك الحقّ حنينًا.

بعثْتُ إليك أمس بالبريد العاديّ المضمون بأربعة من كتبي: **مرداد**. **في مهبّ الريح**. **لقاء**. **دروب**.– هي كلّ ما لديّ من مؤلّفاتي الآن– وقيمتها دون المبلغ الذي تلطّفْتَ بإرساله. أرجو أن تصلَكَ سالمة، وأن تجدَ فيها بعض ما تصبو إليه من المدد الروحيّ في النضال الذي تقوم به اليوم مع نفسك ودنياك.

بسكنتا– لبنان ٢٥ حزيران ١٩٥٥

في رسالتك الأخيرة ما يدعو إلى التخشُّع. وعلى الأخصّ وصفك الشيّق لتلك الرؤيا التي حصلَتْ لك في أحد فنادق سان باولو إذ شعرْتَ بغتة بروحي "تبدو" أمامك كما لو كانت في جسد "لا هيوليّ". ومَن يدري؟ فلعلّني كنت في الواقع معك عندما غمرك ذلك الشعور. لسْتُ أستغرب تلك الظاهرة. وأستغربُ أن يكون في الأرض من يستغربها ويحسبها ضربًا من خداع النفس. وَلَكَمْ قرأتُ وسمعتُ عن مثيلاتها. إلّا أنّ العِلم لاهٍ عنها، وعمّا هو أغرب منها، بدرس القشور التي تتناولها الحواسّ الخارجيّة لا غير. فالناس يعجبون

للعلم يطلق الطاقة الكامنة في قلب الذرّة ولا يعجبون للإنسان الذي لا حدّ للطاقة التي ينطوي عليها كيانه. إنّه، في نظري، العجب العُجاب، والخزّان الذي لا نهاية للقوى الهائلة التي حشدَتْها الحياة فيه. فأحلامه دنيا مليئة بالسحر والفتنة والأسرار، وكذلك أفكاره وشهواته ونزواته وأشواقه وخياله وضميره وإرادته. وهذه كلّها لا نعرف عنها حتّى اليوم سوى اليسير اليسير.

سرّني أن تكون لك مزرعة تجود عليها بقسط كبير من وقتك وعنايتك، فتجود عليك برزقك، وبالكثير من نقاوة الضمير، وصفاء الفكر، وروعة الجمال في التراب، وما يُنبِت التراب، وفي الفضاء الأزرق الذي تضيع فيه جميع مشاكل الناس. وأنا كذلك لي مزرعة تُدعى "الشخروب". وهي واقعة في سفح صنيّن على ارتفاع ١٦٠٠ متر عن سطح البحر. وأنا أهرب إليها من حين إلى حين لأَنْعَمَ بثمارها وخضارها وأزهارها، ولآخذ الطمأنينة من صخورها، وأَسْكَرَ بأغاريد طيورها، وأتفيّأ ظلال عفصها وسنديانها. وإنّي لأعجب للذين يعيشون بعيدًا عن الصخر والتراب، وعن النبتة والحشرة والحيوان، كيف لا تضيق صدورهم، وكيف يتحمّلون فساد أنفاسهم **!؟**- هل تعرف السيّدة مرينا دعبول فاخوري في سان باولو؟ لا شك أنّها سَتُسَرُّ بك وأنّك ستُسَرُّ بها. فمعدنكما يكاد يكون واحدًا.

بوركت يا فارس أخًا وتلميذًا ومعلّمًا ورفيقًا.

بسكنتا– لبنان ٣ كانون الأوّل ١٩٥٧

عليك منّي أطيب السلام. وبعد فقد تسلّمتُ رسالتك الممتازة التي غمرَتْني بفيضٍ من محبّتك وتقديرك. حتّى بتُّ أحسد نفسي على قرّاءٍ مثلك ينفذون إلى قرارة نفسي، ويستعذبون ما أعود به من سياحاتي في ظواهر الكون وبواطنه. ولولاهم لَمَا أمسكْتُ قلمًا ولا رسَمْتُ حرفًا. فهُم القوّة التي منها أستمدّ قوّتي، والنور الذي منه نوري. وفضلهم عليّ أجلّ من فضلي عليهم. فما النفع من أيّ لحن– مهما تناهى في السموّ– إذا لم تكن هنالك آذان تسمع وتقدِّر؟ أو مِن أيّ حكمة– مهما بلغت من الحكمة– إذا لم تكن هنالك قلوب تفهم وتعي؟ والجزاء الأكبر لمن كان مثلي هو أن يجد له قرّاء لهم آذان تسمع، وقلوب تفهم نظيرك، ونظير رفيقيك الكريمين، الفريدو لطفي وتوفيق أبو عسلة. وأين؟ في أقاصي البرازيل! وإنّي لشاكر لك ولهم تلطّفكم بإهداء رسمكم المشترك إليّ.

بعثْتُ إليك اليوم بالبريد المضمون بالكتب التي طلبْتَها: ثلاث نسخ من **مرداد** وثلاث من ترجمتي لكتاب **النبي**. وأضفْتُ إليها ثلاثًا أخرى من مؤلّفاتي: **البيادر** و**صوت العالم** و**كَرْمٌ على درب**. لعلّك تُسَرّ بها إذا كنْتَ لم تَطّلع عليها قبل اليوم. وها أنا أطوي هذه الرسالة على رسم صغير من أحدث رسومي ليكون لك ذكرى عينيّة لرجلٍ عرفْتَه قبل اليوم بعين خيالك وبصيرتك.

ميخائيل نعيمه،

من **المجموعة الكاملة، رسائل،** ط ٢، المجلّد الثامن، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠، ص ٢٩-٣٤.

###